الفصل الثالث

من نبوخذ نصر إلى بومبى

١٤- فلسطين فى يد الفرس من سنة ٥٣٩ ق.م- ٣٣٢ سنة ق.م:

غزا الأشوريون فلسطين وافتتحوها فلما سقطت مملكتهم قام مكانها البابليون الذين سبوا اليهود إلى العراق ولما استوى كورش الكبير على العرش أسس على أنقاض الدولتين مملكة الفرس وألحق بها فلسطين وسمح لليهود سنة ٥٣٦ ق.م بالعودة إلى بلادهم الخربة لأنهُ طمع فى فتح مصر والمغرب وأيقن أنهُ لا يتحقق له هذا الحلم الجميل إلا إذا أرجع اليهود إلى بلادهم ليكونوا له عوناً يتكىءُ عليه أو مدخرًا يستمد منه ما يلزمه لفتح الأقطار التى ينزع إلى استملاكها.. فظل حلمه أضغاثًا حتى قام خلفه كمبيز وصدق رؤياه ففتح مصر وضمها إلى سلطنتهِ ولعل السبب الذى حمل لويد جورج وبلفور ليعطيا فلسطين وطناً قومياً إلى اليهود هو عين الغاية التى رمى إليها كورش.

طال العهد بفلسطين وهى تابعة للفرس تدفع لهم الرسوم والضرائب وتسهل لجيوشهم الطريق إلى مصر وتمدهم بالزاد والعلف حتى تم لهم فتح إفريقية وأخضعوا بابل العظيمة ومملكة ليديا فى آسيا الصغرى فكأن فلسطين كانت حلقة مفرغة ترتبط بها حلقات أخرى فلما انفصمت تداعت منها كل الحلقات فالتقطها ملوك فارس واستولوا عَلَى ممالك الشرق الأدنى فى آسيا وإفريقية ثم نهموا إلى امتلاك أوروبا فحاربوا اليونان فى آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط وتغلغلوا فى بلادهم. وبعد معارك هائلة سطرتها التواريخ القديمة معجبة بشجاعة اليونان الممتازة فى معركتى ماراثون وثرموبيلى غلب الفرس وانقلبوا مخذولين وهؤلاء عظماء ملوكهم الذين حكموا فلسطين.

كورش ٥٥٨ ق.م – ٥٢٩ ق.م

كمبيز ٥٢٩ ق.م – ٥٢٢ ق.م

داريوس ٥٢٢ ق.م – ٤٨٦ ق.م

زركسيس ٤٨٦ ق.م – ٤٦٥ ق.م

وقد قام غيرهم من ملوك الفرس ولكنهم لم يحدثوا حدثًا ولم يبرزوا عملاً يستحق الذكر فطوينا أيامهم وأخبارهم.

١٥ - اليونان فى فلسطين ٣٣٢ ق.م- ٦٣ ق.م

تعدى ملوك الفرس عَلَى البلاد اليونانية فأيقظوا همة الفاتح الكبير اسكندر المكدونى وألهبوا عزيمته فهجم بجيوشه على آسيا وتشوق إلى امتلاك الشرق والتغلب عليه فكان بدء تنازع شديد بين الفرس حماة الشرق واليونان أبطال الغرب الذين قوضوا ممالك آسيا الغربية واستولوا عَلَى أقطارها وحكموا فى أهلها بما لا يقاس على ما تقدمه من الفتوحات لأن الحكومات الأشورية والبابلية والمصرية كانت تكتفى بجباية الجزية والخضوع السياسى فقط. أما الحكومة اليونانية فكانت ترمى إلى غاية أسمى وأعظم وهى نشر مدنيتها فى الشرق وتلقيح العالم بالأفكار اليونانية والمبادىء الهلاسية Hellenism (هلنزم).

ولا بأس إذا تجاوزنا حدود فلسطين وذكرنا بإيجاز سيرة الإسكندر منذ نشأته لئلا يكون الكلام مبتورًا فنقول: ولى الملك وهو فتى لم يتجاوز العشرين ربيعًا فساد أثينا ومدن اليونان كافة وهاجم الفرس فى ضفة جناق قلعة عَلَى نهر غرانيكوس الذى يصب فى بحر مرمره فكسرهم وتبعهم إلى شمال سورية قرب خليج اسكندرونه فى سهل إسوس وهزمهم شر هزيمة ففر داريوس وترك عائلته وذويه ولكن البطل الإغريقى تربص ولم يتعقب فَالَّةَ الجيش واتجه جنوبًا إلى بلاد فنيقية ليفتحها ويستعين بسفنها فنزل عَلَى مدينة صور وكانت آنذاك على جزيرة فطم البحر ووصلها بالبر وبعد حصار دام سبعة شهور فتحها عنوة وانتقم من أهلها ثم

سار جنوبًا فسلمت إليه كل البلاد إلاّ غزة فإن حاميتها العربية قاومتهُ وصدمتهُ ولكنها خضعت أخيرًا فنكل بها.

الإسكندر فى القدس

قال المؤرخ يوسيفوس: إن الإسكندر ذهب لفتح القدس فقابله رئيس الكهنة عَلَى جبل سكوبس فرحب بهِ الإسكندر وطلب إليه أن يسلمهُ المدينة فرفض معتذرًا أن البلاد فارسية وقد أقسم أهلها يمين الطاعة للفرس فلا يسلمون المدينة إلا بأمر من ملكهم فأكرمه الإسكندر وقدَّم هداياه إلى الهيكل فاغتاظ أتباعه من هذا الرفق واللين. ولكن هذه الرواية تفتقر إلى اثبات. أما الأستاذ بورتر فقال: إن الإسكندر صعد إلى أورشليم ودخلها بوقار واحترام ولم يضرّ بأهلها وقد استأنف منها السير إلى مصر ففتحها وخلد اسمه ببناء اربيلا (اربل) شرقى دجلة وجنوب نينوى عاصمة الأشوريين ففرق شمل الفرس وبدد جيشهم وهدم مملكتهم وسجلت هذه المعركة الفاصلة خضوعَ الشرق لليونان. فى ثلاث معارك فقط الأولى غربى الأناضول والثانية قرب خليج الإسكندرية والثالثة شمال العراق. هدم الإسكندر مملكة فارس وشاد عَلَى أنقاضها إمبراطورية يونانية حديثة شهدت له بالتفوق الفكرى والنبوغ العسكرى وأنهُ من أعاظم القواد المشهورين مثل يوليوس قيصر وهنيبال وخالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبى ونابليون إلا أنهُ يمتاز عن غيره ببعد نظره ونزعته إلى مزج الشرق بالغرب وتوحيد العائلة البشرية وقد توخى طرقاً كثيرة لتحقيق أمانيه نذكر هنا أجلها.

١ -- الزواج: تزوج الإسكندر بابنة داريوس وشوق قواده وأجبر رجاله على الاقتران بالشرقيات.

٢ – تعميم الروح اليونانية: فإنه أمر بنشر شعرهم وفلسفتهم وعاداتهم وألبستهم ومسارحهم وفنونهم وألعابهم وآدابهم ولغتهم.

٣ – تجنيد عساكر فارسية وإدخالهم فى جيشه وصبغهم بالصبغة اليونانية مما أغاظ عساكر مكدونية وحملهم عَلَى ترك الجيش ناقمين.

٤ – مبادلة الأشجار والنباتات الشرقية بما يماثلها من المزروعات الغربية. وقد نجحت هذه الخطة التى كانت تصدر من مدينة الإسكندرية منهل العلم والأدب والشعر وتتوزع عَلَى الأقطار.

فانتشرت اللغة اليونانية فى الشرق قبل المسيح وبعده حتى إن المتهذبين كانوا يفتخرون بمعرفتها كتابة وتكلمًا وحتى إن بعض الأناجيل كتب بلغة سقراط وأفلاطون وأرسطو ولم يكتب بالعبرانية.

ورث الرومانيون فلسطين عن اليونان وعجزت لغتهم اللاتينية عن مباراة اللغة اليونانية التى كانت تشبهُ فى ذلك العصر اللغة الفرنسية والانكليزية فى أيامنا هذه. وإن بين أعمال الإسكندر ونابليون لمشابهة كبرى لأنهما جاهدا فى تنشيط العلم وسعيا فى فتح الشرق واستعمره وحاولا الامتزاج بأهله والتقرب منهم.

١٦ - السلوقيون والبطالسة:

توفى الإسكندر فى بابل سنة ٣٢٣ ق.م وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره بينما كان ذاهبًا لفتح السماء كما زعم ولم يبق منهُ إلا شهرته الخالدة وذكره الطيب. فاقتسم قواده الأربعة الإمبراطورية بينهم ولا يهمنا منهم سوى سلوقس حاكم سورية وبطليموس ملك مصر لتناوبهما الحكم فى فلسطين. إن فى التاريخ عبرًا مفيدة ومن لم يستفد من هذه العظات فهو ضعيف خامل ليس بأهل للحياة لأن الدهر سفر عظيم صفحاته الأيام ومواده الحوادث. فإذا استقصينا ماضى الفرد والأمة أو الاقليم نجده سواء تتوالى عليهم أحوال متشابهة وحوادث متماثلة فكأنهم يسيرون حول دائرة إذ انتهوا من الدورة الأولى ابتدأوا فى الأخرى وهكذا دواليك فالذى لا يزرع شيئًا لن يحصد شيئًا ومن فاته عمل فليتعوض من سواه ولكن فلسطين لم تتنبه لهذه الحقيقة وكانت كرة تتلقفها العراق ومصر وسورية فتهشمها تارة وتحطمها تارة أخرى وإذا فلتت من واحدة خطفتها الأخرى. فلما التحقت بمصر كما كانت فى أيام صحوتميس تسامحت معها الحكومة

ولم تتعرض لتقاليد الأهلين وأذنت لرئيس الكهنة أن يظل حاكمًا دينيًا وسياسيًا كما كان. وفى هذا العصر ترجمت الكتب المقدسة من اللغة العبرانية إلى اليونانية. فإن بطليموس فيلادلفوس (محب العلم) أخذ سبعين عالمًا يهوديًا إلى مصر لترجمة التوراة فأحسنوا صنعهم وجاءت طبق الأصل فى دقة التعبير وقوة المعنى. ولكن سيطرة مصر عَلَى فلسطين لم تدم غير قرن وربع لأن أنطيوخوس الرابع ملك سورية ضمها إلى مملكته سنة ١٩٨ ق.م بعد معارك قاسية انتهت بفوزه عَلَى الدولة البطليموسية. والغريب هنا أن أهالى فلسطين انقسموا على أنفسهم فبعضهم حاول الانضمام إلى مصر والآخر أراد البقاء مع سورية. وكذلك كانت الحالة فى عهد نبوخذنصر فإنهم انشطروا إلى شطرين أحدهما يطلب سورية والثانى مصر، وإذا قابلنا تلك الحالات بأيامنا الحاضرة نراها متماثلة فإن المؤتمر الفلسطينى الأول المنعقد سنة ١٩١٩م. انقسم أعضاؤه إلى قسمين طلب بعضهم الالتحاق بمصر والآخرون أرادوا الانضمام إلى سورية. ولو أمعنا النظر لوجدنا أن فلسطين لم تستفد من الانشقاق القديم والانتقال شيئًا لأنها كانت تنتقل من نير إلى نير أو من حكم مصر إلى حكم سورية وكلاهما دولة يونانية. على أن البطالسة كانوا يراعون شعور الوطنيين أكثر مما فعله السلوقيون.

١٧ - المكابيون:

المكابيون أسرة تنتسب إلى بطل يهودى يسمى يهوذا ويلقب بمكابيوس وهو جدير بالاحترام لما أظهره من الوطنية وأبداه من الجرأة فألهب بحماسته صدور بنى قومه وأشعل الثورة العامة لدفع ظلم الدولة السلوقية اليونانية.

والحركة المكابية مثال من الأمثلة المسطرة فى بطن التاريخ والدالة عَلَى أن الروح الوطنية الحقة إذا اختلجت فى الصدور لا يقف أمامها قوة، ولا يضعفها بطش، وأوضح برهان عَلَى ذلك أن شرذمة يهودية غير منتظمة قاومت الجيش اليونانى السورى وانتصرت منهُ لأن أفرادها أخلصوا فى عملهم واعتقدوا بصحة قضيتهم واستماتوا فى سبيل تحقيقها لما رأوا أن انطيوخوس عبث بهم وبتقاليدهم واستضغر بلادهم وباع وظيفة الحبر الأعظم إلى يشوع أخى اونياس اليهودى الذى

كان مولعًا بالعادات الغربية وربيب المدنية اليونانية فكان ماقتًا لتقاليد قومه والذى افتتح أعماله بتغيير اسمه يشوع باسم يونانى ياسون، وروج الملاهى والألعاب والعادات اليونانية المكروهة عند قومه فحسده أخوه أونياس وذهب إلى انطيوخوس وشرى منهُ الرتبة الحبرية بأكثر مما شراها أخوه فعينه بعد أن عرض عليه شروطًا مجحفة بحق امته وقبلها فغير اسمه أونياس بمنلاوس. فعمل انطيوخوس مع الأخوين يشبه عمل الوزير خاقان الذى كان يعين الوالى فإن زاد عليه أحد عزل الأول وعين صاحب الزيادة حتى قال فيه الشاعر:

وزير قد تكامل فى الرُقاعة　　يولى ثم يعزل بعد ساعة

إذا أهل الرشى صاروا إليه　　فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

ولما رجع منلاوس لاستلام وظيفته أبى أخوه أن يسلم إليهَ المدينة فتحاربا ولم يتمكن أحدهما من قهر الآخر فجاء انطيوخوس من مصر وأعلن الحكم العرفى فأباح المدينة ونهب الهيكل وعين قائده فيلبس الجائر حاكمًا عامًا عليهم وكانت هذه الضربة أول وميض الشدة والجبروت الذى شرع انطيوخوس يتمادى فى إذكائه فأمر بإلغاء الدين اليهودى من أصله وأكرههم على عبادة الآلهة اليونانية وأمر بنصب تمثال لزُفس ومذبح فى الهيكل لتعتر الخنازير عليه وأرغم اليهود عَلَى مشاركتهم فى طقوسهم وحظر الاختتان واضطرهم إلى الشغل يوم السبت وكان يجازى كل من خالف أوامره بالقتل وهذا غاية العسف ونهاية الشدة فلما بلغ الظلم أشده لم يصبر عليةَ اليهود ونهض الكاهن متاتياس وهو من قرية مودين (المدية) الواقعة شرقى اللد واعتصم بقريته وأخذ معهُ بنيه الخمسة ومنهم يهوذا مكابيوس (جد المكابيين) وبينما كانت الثورة تختمر فى قلبهَ شعر بدبيب الهمة فى نفسهِ واشتداد العزم بين جوانحهِ فطفق يبحث عن طريق الخلاص لأمتهِ وإذا برسول يونانى قدم عليهِ ليكره الأهالى على عبادة الأوثان فغضب الكاهن وفتك بهِ وحرض الشعب عَلَى خلع طاعة اليونان فناوأهم مدة ثم خلفه ابنه يهوذا فحارب السلوقيين وظفر بهم فى مواقع كثيرة كمعركة بيت عور بين اللد ورام الله وبيت صور قرب مدينة الخليل وكانت النتيجة فوز الوطنيين عَلَى الأجانب وتخليص

البلاد من الدخلاء فتولى المكـابيون الإدارة مـن سـنة ١٦٧ ق.م. إلى سـنة ٣٧ ق.م. فلما رجعوا إلى سيرتهم الأولى وشجر بينهم الخلاف والنزاع أخذوا يستعينون بمـن حولهم مـن الملوك فالتجـأ هركـانوس إلى الحـارث العربـي ملـك بطـرِ (الحِجـر) واستصرخه علـى أخيـهِ أرسـتبولوس فلبـاه وسـار لنصرتـهِ بخمسـين ألـف مقـاتل وحاصر أورشليم ولكنهُ لم يتوفق.

obeikandl.com